فتح مصر

١٨-٢١هـ ٦٣٨-٦٤١م

حالة مصر قبل الفتح:

كانت مصر قبل الفتح الإسلامى خاضعة للروم، وكانت حالتها إذ ذاك سيئة للغاية، فقد لقى أهلها من الروم كل صنوف العنت والإجحاف، إذ أوصدوا فى وجوههم المناصب الكبرى وقصروها على أنفسهم، وفرضوا عليهم ضرائب فادحة عمت رءوسهم وصناعاتهم وتجارتهم وماشيتهم وأراضيهم ودورهم كما ألزموهم توفير الراحة لمن يمر بهم من الموظفين الرومان.

وفضلا عن ذلك اعتبروا مصر حقلا يمد بلادهم بما يحتاجون إليه من غلات.

ولما دان المصريون بالمسيحية اضطهدوهم لخروجهم على الوثنية التى كانوا يدينون بها، وناهيك بما أصابهم فى عهد دقلديانوس، إذ قتل علماء الملة وكبراءها حمية للوثنية، مما جعل الأقباط يؤرخون بوقعة شهدائهم أولئك إلى اليوم، وحتى بعد أن دخلت المسيحية بلاد الرومان وصارت الدين الرسمى لدولتهم، كان النزاع الدينى على أشده بين المصريين اليعاقبة، والرومان الملكانية، لاختلافهم فى طبيعة المسيح، فكان الروم يعملون جاهدين على أن يعتنق المصريون المذهب الرسمى للدولة وهو المذهب الملكانى، وبخاصة الإمبراطور هرقل الذى ولى عليهم قيرس (المقوقس) وجمع له السلطتين: الدينية والزمنية ليحقق هذا الغرض؛ فظل هذا يذيقهم العذاب ألوانًا عشر سنوات ليحملهم على اعتناق هذا المذهب، فاضطر الكثير منهم أن يفر بدينه إلى الجبال فساءت حالة البلاد وعمها الشقاء، وتطلعوا إلى من يخلصهم من هذا البلاء وكانوا يسمعون عن عدل المسلمين وحسن سيرتهم مع أهل البلاد التى فتحوها، ورجوا أن يكون فتح المسلمين لبلادهم مخففًا لآلامهم، وأن

يكون نير المسلمين أخف حملا من نير الروم، حتى قال بتلر: «إن سيف قيرس قد قطع آخر ما كان يربطهم إلى الدولة الرومانية من أسباب الولاء، وذلك لكثرة مالاقوه فى السنوات العشر من الظلم الذى نزل بهم إلى حضيض من الشقاء لا أمل معه. فرأوا فى مجيء المسلمين نازلة أرسلها الله لينتقم لهم بها من ظالميهم»[1].

ومما سبق يتضح أن حالة مصر قبيل الفتح الإسلامى كانت من أهم العوامل التى سهلت للعرب سبل الفتح.

التفكير فى الفتح:

يرجع التفكير فى فتح مصر إلى عمرو بن العاص الذى كان يعرف الكثير عن أحوالها فاقترح على عمر بن الخطاب عند قدومه إلى بيت المقدس لتسلمه سنة ١٥هـ كما سبق أن يأذن له فى فتحها، ولكن عمر رغب عن ذلك، وعندما قدم الشام سنة ١٨هـ على أثر طاعون عمواس أعاد عمرو عليه اقتراحه الأول وبرره بمبررات فيها مصلحة للمسلمين، منها:

١- أن مصر بلد سهل الفتح لا يكلف المسلمين الكثير من الأرواح، لأنها غير محصنة، وسوف يجد المسلمون مساعدة من المصريين لبغضهم لحكامهم الروم.

٢- أن الأرطبون (أريطبون) وهو داهية الروم بعد هزيمته فى بيت المقدس فر إلى مصر وأخذ يعمل على تنظيم قواتها، ليجعل منها قاعدة حربية لاسترداد البلاد التى فتحها المسلمون فى الشام.

٣- أن مصر هى الامتداد الطبيعى الجنوبى لفلسطين، وفى فتحها محافظة وتثبيت لأقدام المسلمين فى الشام، ومنها يمكن المسلمين أن يثبوا إلى إفريقية إن أرادوا.

(١) راجع كتاب تاريخ مصر الإسلامية للأستاذ محمد مبروك نافع ص ٣١.

٤- أن خيراتها وغلاتهـا كثيرة تعوض ما يتحمله المسلمون فى سبـيل فتحها، كما أن هذه الموارد تقوى المسلمين فى المحافظة على فتوحهم.

٥- وفضلا عن ذلك فإن فـتحها يحقق للمسلمين أهم غـرض من فتوحاتهم وهو نشر الإسلام.

وعلى الرغم من هذه المبررات فقد تردد عمر؛ لأن أقدام المسلمين لم تثبت بعد فى البـلاد التى فتحـوها، ولأن جند المسلمين كانوا مـتفرقـين فى الشام والعراق، وليس من السهل إعداد جيش تطمئن إليه نفس الخليفة لفتح مصر.

ولكن عمرًا ألح على عمر وهون عليه فتحها وزينه له بالمبررات التى ذكرها له، وما زال به حـتى أذن له فى السير إليـها، وعقد له على نحـو من أربعة آلاف رجل.

مراحل الفتح

عندما أذن الخليفة لعمرو بالمسير قال له: «إنى مرسل إليك كتابًا فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره».

سار عـمرو سالكًا الطريق التى سلكـها الأقدمون فى فـتحهم مـصر وهى الطريق المسايرة لساحل بحر الروم، حتى إذا مـا بلغ رفح أدركه رسول الخليفة بكتابه، ولكنه لم يتسلمه من الرسول، حتى إذا بلغ العريش أخذه منه، وبعد قراءته على أصحابه أمر الجيش بالسير متسعينا بالله.

الفرما:

وصل عمـرو إلى العريش فى العـاشر من ذى الحـجة سنة ١٨هـ (٦٣٩م) وفتحها بلا مقاومة، ثم غادرها إلى الفرما[١] التى كانت بمثابة مفتاح لمصر فى ذلك الحين فحـاصرها نحوًا من شهر، صـبر فيه المسلمـون وصابروا حتى تم لهم فتحها فى المحرم سنة ١٩هـ (منتصف يناير سنة ٦٤٠م).

(١) الفرما: مدينة تاريخية قديمة ذات حصون قوية ولها ثغر على البحر ويصل إليها جدول ماء من النيل.

بلبيس:

سار عمـرو إلى بلبيس ملتزما حدود الصـحراء الشرقية مـخالفًا بذلك من سبقوه لتكون ملجأ له، ولخلوها من القنوات والمستنقعات والتقى بجيش الروم بقيادة الأرطبون، ودار بينهما قتال شـديد قتل فيه الأرطبون وكثير من جنده، واستولى المسلمون على المدينة.

أم دنين:

بعد مـوقعة بلبـيس اتجه عمـرو إلى قرية «أم دنين»[1] والتحم بالروم ودام القتال بينـهما عدة أسابيع، فلمـا أبطأ عليه الفتح كف عن القـتال وكتب إلى عمـر يستمـده، وعزم على أن يغادر ذلك المكـان الحرج ويشغل جنده ريثـما يصله المدد. فعبر النيل متـجها إلى الفيوم، فاستعصى عليه فتـحها! فعاد وقد قدم المدد وعلى رأسه أربعـة من كبار الصحابة وهم: الزبير بن الـعوام وعبادة ابن الصامت، ومسلمة بن مخلد، والمقداد بن الأسود وكتب إليه الخليفة: «قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل».

وبعد أن عبر عمرو النيل إلى جانبـه الشرقى انضم إليه المدد كما انضم إليه من قبل كثير من أعراب سيناء ثم عسكر شمالى عين شمس.

موقعة عين شمس سنة ٢٠هـ:

كان القـائد الرومانى تيـودور قد حشـد جيـشًا عدته عـشرون ألفًـا لملاقاة المسلمين فأكمن له عـمرو كمينا فى الجبل الأحمر وآخـر على النيل قريبًا من «أم دنين» ثم لاقاه ببقـية الجيش ولما حمى وطيس القتـال بين الفريقين انقض كمين الجبل الأحـمر على الروم فاختل نظامهم فاتجهـوا إلى أم دنين فصدمهم الكمين الذى كان بقربها، فكان من نتيجة ذلك التدبير سحق الجيش الرومانى والاستيلاء على أم دنين وعين شمس وجعلها مقرا لقيادة المسلمين، والشروع فى حصار حصن بابليون (جنوبى مصر القديمة) ولعدم وجود معدات الحصار مع العرب اكتفى عمرو بالمرابطة حول الحصن.

(١) موقعها الآن ما بين حديقة الأزبكية وعابدين إلى النيل.

المقوقس يطلب الصلح:

بعد حصـار دام شهرًا رأى المقوقس شجـاعة العرب وصبـرهم على القتال وأنهم سوف يقتحمون الحصن فتمكن من الخروج فى نفر من قومه إلى جزيرة الروضـة لمفاوضـة العرب فى الصلح وأرسل إلى عـمرو وفـدا يطلب الصلح فأبقى عمرو الرسل عنده يومين ليروا بأعينهم أحوال المسلمين فيوهن ذلك من عزيمتهم للقتال، ثم قال لهم: ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث:

١- إما دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا وعليكم ما علينا.

٢- وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون.

٣- وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين.

ولما رجعت رسل المقوقس إليه سألهم عن أحوال العرب فأجابوه بأننا «رأينا قومًا الموت أحب إليـهم من الحياة، والتواضع أحب إليـهم من الرفعة، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة، جلوسهم على التراب، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف كبيرهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم».

أرهب هذا الوصف المقوقس وألقى الرعب فى قلبه فأشار على قومه بطلب الصلح وحاول مع المسلمين أن يجيبوه إلى خصلة أخرى غير هذه الثلاث فلم يفلح، وأخيرًا قبل الصلح على أن يؤدى الروم الجزية للعرب، وطلب المهادنة إلى أن يوافق هرقل الذى ثار وحنق حينما وصله كتاب المقوقس بالموافقة على الصلح، وأرسل يوبخ المقوقس ويستقدمه إلى القسطنطينية.

ولما علم العرب بذلك واصلوا الحصار وكان القبط أعوانا للمسلمين والمقوقس ضالعًا معـهم. وبينما الأمر كذلك إذ بلغهم مـوت هرقل فكان ذلك مثبطا للروم وباعثًا على تسليم الحصن، وقد تم ذلك فى ربيع الآخر سنة ٢٠هـ.

وكان من نتيجة الاستيـلاء على الحصن أن أصبح المسلمون يسيطرون على معظم البلاد، ويتحكمون فى الصعيد والدلتا معًا.